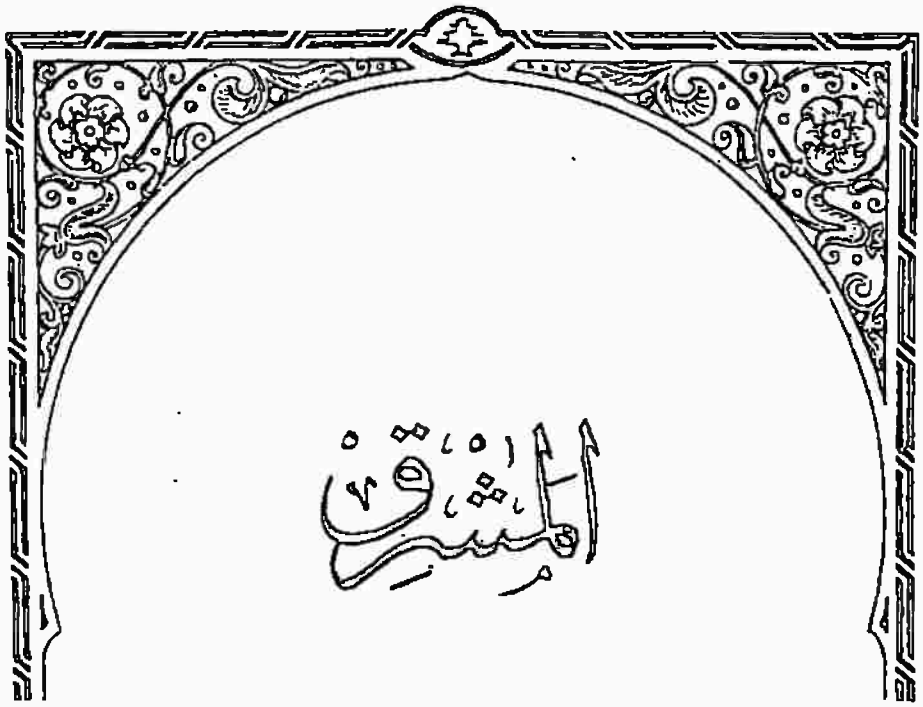

السنة السابعة والاربعون — كانون الثاني – شباط ١٩٥٣

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

ولمّا اطّلع ملك صقليّة على خيانة اليونان سخط جدًّا وسار الى مدينة تيبايس واحتلّها وقوّضها وأهلك بالسيف سكّانها . وأجرى مثل ذلك في ادريانوبوليس وفي فيلوفوليس واقبل الى قسطنطينية وعاث في ضواحيها .

ومات في تلك الغضون لاون الارمنيّ صاحب قيليقية في قسطنطينية وانهزم ابنه توماس راجلًا دون سبد ولبد الى قيليقية (٣١٤) وزار مطران السريان السيّد اثناسيوس وطلب صلواته ليردّ الله تعالى اليه ميراث آبائه . فصلّى عليه واهداه حصانًا بثابة بركة . وما عتم ان لحقه اثنا عشر ارمنيًّا وسار اوّل بدء الى حصن عامودا ولمّا شاهده الحرّاس عرفوه انه ابن مولاهم فسلّموه دون تردّد فدخل الحصن وفتك بمن كان فيه من اليونان واحتلّ في مدّة وجيزة اماكن شتّى

فهابه الروم الذين في سائر الحصون. واتفق معه الفرنج وناوشوا الاتراك وفتكوا بثلاثة آلاف منهم . وذاع صيت انتصاره وبات الاتراك يحسبون له الف حساب . وبعد ذلك احتلّ عين زربة وغيرها .

وفي تلك السنة استولى نورالدين بن زنكي على افامية وعلى بعض حصون الفرنج . فاقام له صاحب انطاكية كميناً فتك بكثير من عسكره وافلت هو الى حلب مع قليلين .

وفي السنة ١١٦٠ لليونان (١١٤٩م) وهي السنة ٥٤٣ للعرب زحف نورالدين الى حارم وغزا ضاحيتها وقوّض ابنيتها التي كانت خارج القلعة . وسار البرنس صاحب انطاكية ليكشفه عنها لكنّ الاتراك تغلّبوا عليه وفتكوا به. وكانوا فيما سبق يهابونه جدًّا اذ لم يكن اقوى منه ما بين الفرنج . وحصلت فتنة بين الانطاكيين حتى رام اغلبهم ان يسلّموا نور الدين مدينتهم. غير ان بعضهم راسلوا ملك اورشليم فسارع اليهم وبثّ روح النخوة في قلوب الفرسان واقام بطريركهم مدبّرًا لهم ريثما يترعرع بوهيمند ابن البرنس القتيل . وقُتل في هذه المرّة صاحب الكنيسوم وتولاها جوسلين مع قرية بيت حسنة .

وفي السنة عينها اقبل تلج ارسلان بن مسعود سلطان قونية وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج وسهّل للفرسان والاسقف والقسّان ان يذهبوا (٣١٥) الى انطاكية بسبب قسم سبق فأقسم لهم . غير ان الاتراك لحقوهم وفتكوا بهم . وفي فتح مرعش هذا نُهبت امتعة كنيستنا بسبب نزاع حدث بين القسّان والاسقف في جملتها قنينة ميرون وكؤوس واطباق ومباخر فضيّة وحلل كهنوتية وسجف وغيرها .

وانتزع قرا ارسلان صاحب حصن زياد من الفرنج مدينة بابولا وارسل كناءً الى جرجر وكان اهاليها جميعاً مختفين في جبال برصوما فاقاموا كناءً في ثلاثة اماكن انقضّوا صباحاً ونهبوا المواشي والبقر وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير . وارسلوا الى الرهبان ان سلّمونا اهالي جرجر نردّ لكم الغنائم حرمةً لقدّيسكم ونقدّم له النذور . لاننا لم نأتِ لتعدّي على ديره . وليس من نيّتنا ان نستعبد الاهالي لكننا نذهب بهم الى قراهم لكي يفلحوها. غير ان الرهبان اختلفت كلمتهم ففريق رأوا ان يسلّموا والفريق الآخر أبوا حتى أفضى

بهم الخلاف الى ضرب بعضهم بعضاً بالسيف . عند ذلك نهض راهب شيخ واستصحب شخصين من كلا الفريقين وسار خدمتهم وواجهوا الاتراك وقالوا لهم : ان كنتم صادقين في طلبكم الاهالي للحراثة لا للعبودية فليأتِ فريق منكم معنا لنذهب ونراجع اميركم المحروس ونأتمر بامره. غير ان مكر الاتراك اتضح جلياً ومن ثم اجمع الرهبان ومن معهم على الرفض . فأحرق الاتراك المعاصر وساجات الكروم وانقلبوا عائدين . وسار الرهبان الى حصن زياد وقابلوا الامير فاشفق عليهم وردّ لهم الغنيمة كلها .

وفي تلك السنة برز جوسلين من تلّ باشر في مائتي فارس وساروا الى انطاكية يظنون انهم يناوشون الفاً . فباغتهم التركمان ليلاً وهزموهم وتتبعوهم (٣١٦) وقبضوا على جوسلين ومضوا به الى نور الدين فاشتراه بالف دينار منهم ثم اوثقهُ وحبسه . وظلّ جوسلين محبوساً تسع سنوات وكانوا يلاطفونه تارة بالوعد وطوراً بالوعيد ليجاهر بالاسلام . لكنه لبث راسخاً في ايمانه مقرّاً ان الربّ انما أدّبه لتعدّيه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخنا اليعقوبي . ولمّا دنا أجله استدعى اسقف المدينة فعرّفه وناوله الاسرار المقدّسة وقضى هناك في جبّ الحبس . ولمّا كان مأسوراً حمل الاتراك على كثير من اماكن الفرنج واحتلوها كجرجر وكفتي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير . وعلى اثر وفاته اقام الفرنج ابنه الفتى خلفاً له في تلّ باشر وكان اسمه كذلك جوسلين.

وفي السنة ١٤٦١ لليونان (١١٥٠م) وجّه اهالي الكيسوم مطرانهم ايونيس الى مسعود سلطان قونية وطلبوا الامان للفرنج الذين عندهم كي يأذن لهم ان يذهبوا الى عينتاب . فلبى طلبهم واستولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ورعبان وفرزمان ومرعش . ولمّا كان يحاصر تلّ باشر اقبل اليه نور الدين نزفَ اليه السلطان ابنته . فترك تلّ باشر ولم يتيسّر له احتلالها. وما مرّ القليل حتى شخص ملك اورشليم ونقل معه امرأة جوسلين وابناءه وجميع الفرنج . واقام في تلّ باشر بعض عمّال يونان فاحتلوا عينتاب وعزز ثم ضايقهم نور الدين قتلاً وجوعاً فسلّموه اياها صلحاً .

واحتلّ تيورطاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وكوريس وكفرسوت. وكان يومئذٍ في رومي قلعة ميخائيل الارمنيّ (٣١٧) فكتب الى امرأة جوسلين

وابنها ليأمرا غريغوريوس جاثليق الارمن وهو في دير البحرة ان يذهب ويقيم عنده ويساعده. لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتلّ كلّ ما له وطرده واستبدّ برومي قلعة .

وفي السنة ٥٤٤ للعرب (١١٤٩م) انتزع سيف الدين بن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تيمورطاش صاحب ماردين ثم زحف الى ماردين وحاصرها فزفّ اليه تيمورطاش ابنته وهادنه . وما كاد يصل الى الموصل حتى ادنف ومات وخلفه قطب الدين مودود اخوه فاقترن بابنة تيمورطاش . وعند ذلك ارسل احد زعماء الموصل الى نور الدين ليتوجّه من حلب الى تلك المدينة . فركب مع سبعين فارساً ووصل الى سنجار واحتلّها وبعث الى قرا ارسلان صاحب الحصن ووعده بقلعة هيتم اذا اقبل الى مساعدته . امّا قطب الدين اخوه فحشد الجنود ومشى الى تل عفر ليبارز نور الدين فتوسّط الزعماء وقرّروا حمص لنور الدين وانتزعوها من سيف الدين . وردّ نور الدين سنجار الى قطب الدين وانقلب الى حلب .

وفي ٢٣ آب تلك السنة حدث فيضان في حصن زياد جرف صبيّاً مع امّه وبغلين وحمارًا وهلكوا جميعاً . وفي السنة ١٤٦٢ لليونان (١١٥١م) حملت على صاحب ايزمجي امرأته وخنقته بوتر القوس واستحضرت اخاه من ديباريجي واقترنت به وملكته مكان زوجها الاوّل .

وسار امير تركيّ الى دير سيريكا اليونانيّ في بنطس وانتزع منه الصليب الذهبيّ الذي كان ينطوي على قطعة معتبرة من خشب الصليب تجري العجائب الكثيرة بواسطته . ولم يردّها الى الرهبان الاّ بعدما استتزف منهم كمّية من المال وافرة . ولقد خجل اليونان الذين يجدّفون على مار برصوما ويقولون : لو كان قادرًا على صنع العجائب لمّا ترك جوسلين (٣١٨) يسلب ذخيرته !

وفي تلك السنة زحف نور الدين الى ضواحي دمشق وارسل الى اهاليها يقول : اني ما أتيتُ لاحاربكم بل لاكشف العار عنكم اذ انكم ما برحتم تؤدّون الجزية للفرنج وقد أمسى بنوكم وبناتكم أسرى عندهم لا يساعدهم احد . فارسل اليه الدمشقيّون يقولون: اننا متمسّكون في مجابح الامان مع الفرنج ولسنا في حاجة الى مساعدتك . فاتركنا وارجع الى حلب والاّ فاننا مرسلون

الى الفرنج ليأتوا ويتفقوا معنا على مناهضتك . فاستشاط نور الدين سخطاً وحاول ان يحاصر المدينة لكنّ الله سبحانه اهبط من السما. وابلاً من الامطار متواصلاً ثبّطه عن انجاز عزمه . ثم سار اليه زعما. دمشق وهادنوه بان يخطبوا له بعد الخليفة والسلطان فتركهم وانقلب الى حلب .

وفي السنة ١٤٦٣ لليونان (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانيةً من رومية ساخطين على اليونان المكّارين واقبلوا الى ضواحي قسطنطينية واحرقوها جميعها ثم وافوا الى فلسطين واحرقوا قرى جمّة في عسقلان وفتكوا بجمهور غفير من الاتراك والعرب . وساروا كذلك الى مصر واخربوا واحرقوا قرى كثيرة في غربيّها وعادوا الى وطنهم . .

وفي السنة عينها مات دولة صاحب ملطية وخلفه ذو القرنين ابنُهُ . فسمع مسعود سلطان قونية وهجم على يعقوب ارسلان اخي دولة وأخضعه ثم نازل ملطية وأفسد ارباضها فخرجت اليه امّ الفتى وهي ابنة اخيه وتوسّلت اليه بشأنه فقال لها السلطان : اذا أتى اليّ خاضعاً قبلتُه وتركتُ له المدينة. فخرج اليه الفتى حاملاً سيفاً وكفناً . فرحّب به وأيّده وتركه وانصرف . هكذا استحوذت امّه على المدينة واساءت الى النصارى والعرب بالضرائب وحشدت نساء ساحرات عرّافات (٣١٩) تنبّأن لها بانها ستملك وتتبع مَن تشاء . فنوت ان تفتك بابنها الصغير. غير ان الزعما. اطلعوا على نيّتها فطردوها مع الساحرات وصحّت فيها آية النبيّ :« امكثي على رُقاكِ وانواع سِحرك الذي تُنيتِ به منذ صباكِ ... قد أُعييتِ من كثرة مشوراتك » (اشعيا ٤٧ : ١٢ و١٣).

وفي هذه السنة هبطت امطار غزيرة جرفت حجارًا ضخمة وتلالاً وصدعت جانباً من الجبل وتدهورت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وترشنا . ووقف مجرى الفرات نحو ثلاث ساعات وبلغت المياه الى قرية فرويدين المبنيّة على قنة الجبل. ثم انشقّت السدود بلحف جبل قاودية وفاضت المياه واحدثت خراباً فظيعاً في سوريّة . وفي السنة عينها فتك الوبا. باثني عشر الفاً من اهالي دمياط حتى اقفرت من السكان بيوت كثيرة .

وزحف نور الدين تكرارًا الى دمشق واحتشد الفرنج ليساعدوا الدماشقة فانقلب راجعاً الى حلب . وفي تلك السنة وهي السنة ٥٤٦ للعرب (١١٥١م)

خرج صلاح الدين من عند نجم الدين ايوب ابيه وهو في بعلبك وسار الى حلب يريد عنه اسد الدين شيركوه وهذا ذهب به الى نور الدين فرحب به ورضخ له بعض المال لمعاشه .

وفي السنة ١١٦٤ لليونان وهي السنة ٥٤٧ للعرب (١١٥٣م) حصل نزاع بين ملك اورشليم وامه فتحصنت في برج داود فتوسط الاقطاب وقرروا لها اورشليم ولابنها سائر المدن ورعاية الجيش . فسار الى عسقلان وهي للعرب المصريين واقام برجاً خشبياً ومنجنيقات واحدث هناك ترعةً طفر اليها اربعمائة من الاخوة الفرير (الهيكليين) فوثب اليهم العرب وهم عشرون الفاً مدججون وفتكوا بهم (٣٢٠) فتأثر الملك اشدّ التأثر وكاد يترك المدينة فشبّطه احد المحاربين . ثم تولى الفرنج حراسة الترعة ولم يَدَعوا العرب يردمونها . وعند الصباح حمل الملك الصليب تجاه المدينة ونادى قائلاً : من لم يتبع الصليب لا يُعَدّ مسيحياً . فوثبوا باجمعهم ودخلوا المدينة واجهزوا على زهاء خمسة عشر الفاً من العرب واتهزم بقيتهم في السفن الى مصر . والحقيقة التاريخية هي ان الفرنج احتلوا عسقلان عام ٥٤٨ للعرب اعني في السنة ١١٦٥ لليونان (١١٥٤م) لكن البطريرك ميخائيل ذكر ذلك في السنة ١١٥٣ م وبسبب هذه النصرة التي أحرزها ملك اورشليم أنيطت به كذلك امارة انطاكية وزُفّت اليه ارملة صاحبها .

وسار توروس الارمنيّ صاحب قيليقية الى قيدوقية وغزا الاتراك وعاد الى بلده .

وزفّ مسعود سلطان قونية ابنته الى يعقوب ارسلان واتفقا معاً على الزحف الى قيليقية . غير ان الارمن سبقوا فاقاموا حرّاساً في كلّ الانحاء. مما اضطرّ الاتراك ان ينقلبوا راجعين من الثغور مأيوسين. بناء عليه تشدّد توروس وانتزع من اليونان ما بقي لهم في تلك الاطراف . فثار ثائر منوئيل الملك ووجّه الى قيليقية اندرونيقس القائد وكان من الأسرة المالكة. وتجمهر الارمن والفرنج ونازلوا اليونان على باب طرسوس وتغلّبوا عليهم وقتلوا منهم نحو ثلاثة الاف واتهزم بقيتهم في البحر .

وفي هذه السنة ولدت عزّةُ جديداً ذا ثلاث عيون وفمين . وحدث وباء قتّال في قيليقية وفي قونية.

وفي تشرين تلك السنة سار الرجال والنساء في الفرات قادمين من حصن زياد الى جوباس ليحضروا موسم مار اغريباس فغرقوا جميعاً في النهر واختنقوا وغلب على الكثيرين الريب في الدين . فكتب أيمّة الكنيسة احتجاجاً ذا ثلاث نقاط الاولى: يجب ان لا ننتقد احكام الباري تعالى(٣٢١)غير المدركة. والثانية : ان اولئك الرجال والنساء لم يذهبوا ليتبرّكوا في تذكار الشهداء يومئذٍ بل ليتزهوا ويتهتّكوا . والثالثة : يجب ان لا نحصي في عدد الهالكين مَن يحكم الربّ بان موتهم خيرٌ من حياتهم. وانّما يهلك الوثنيون لا المؤمنون.

وفي السنة ١٤٦٥ لليونان (١١٥٤ م) زحف مسعود سلطان قونية في جيش تركيّ جرّار الى قيليقية . ولمّا وصلوا الى تلّ حمدون وضايقوا اهاليه ضربهم الله تعالى بان سلط عليهم البقّ والذبّان كما جرى للمصريّين في عهد موسى الكليم . وفسد المناخ مدّة ثلاثة ايّام ودبّ الوباء فيهم وفي خيلهم فتركوا اثقالهم وانهزموا والمحدر توروس والارمن من الجبال وظلّوا يفتكون بالبقيّة الباقية حتى أعيَوا وساروا بعد ذلك الى جبدانية او هي دوالو وغزوا الاتراك ورجعوا .

وفي هذه السنة احتلّ الفرنج عسقلان طبقاً للحساب المدقّق وظلّت في حوزتهم خمساً وثلاثين سنة ثم اخذها صلاح الدين .

وفي السنة عينها وهي السنة ٥٤٨ للعرب (١١٥٣ م) مات حسام الدين تيمورطاش صاحب ماردين وخلفه ابنه نجم الدين ألبي . وشدّد في اوّل الأمر على المسيحيّين ثم أمر اولاده حين وفاته ان يحسنوا معاملتهم ولا يلحقوا بهم أذًى . قيل ان مار آباي ظهر له ليلاً واوصاه بذلك . وتولّى جمال الدين ثاني ابنائه مدينة حاني وصمصام ثالث ابنائه مدينة دارا .

وفي السنة ١٤٦٦ لليونان (١١٥٥ م) مات مسعود سلطان قونية وخلفه ابنه قلج ارسلان . وتعذّر عليه مبارزة آل دنشمند ويعقوب ارسلان حتى سار نور الدين واحتلّ قرزمان وعينتاب دون حرب .

وفي السنة ٥٤٩ للعرب (١١٥٤ م) انتزع نور الدين دمشق من صاحبها مجير الدين حرباً . ذلك انه اثار بادئ بدء خلافاً بينه وبين زعمائه وجعل يكتب اليه سرًّا أن احترس من مكر فلان وفلان وفلان لانهم يكاتبوني

ويريدون ان يسلّموني المدينة . وانا لا أرى ان اترك مناوشة الفرنج واحارب العرب . وبمثل ذلك غرّ مجير الدين المسكين وفتك بقوّاده واحدًا واحدًا ولم يبقَ من يعارضه فزحف الى دمشق واحتلّها بسهولة . وولّى مجير الدين صاحبها بعض قرى حمص ووجّهه اليها . وقد عامل نور الدين الدمشقيّين بالحسنى فسُرّوا به معتقدين انه يتغلّب على الفرنج .

وفي هذه السنة قُتل الظافر بن الحافظ خليفة مصر وخلفه عيسى ابنه الصغير وهو في الثالثة من سنّيه وسُمّي الفائز . وتولّى وزارته العبّاس في غياب فارس الدين الامير الكبير . فسخط هذا على العبّاس وتهدّده لانه جعل يتصرّف دون مشورته . فتخوّف العبّاس واخذ امواله وخرج في ثلاثة آلاف من الارمن وبعث يستنجد بنور الدين . غير ان المصريّين تتبّعوه فشدّ عليهم الارمن وفتكوا باغلبهم . ثم تطرّح العبّاس ورجاله في الصحراء باغواء هاديهم وادركهم الجوع والعطش وجرى لهم ما جرى ليوليانس الجاحد . ولمّا ذهب بهم نحو عسقلان برز اليهم الفرنج ولمّا لمح الارمن الصليبان في رؤوس الارماح القوا عنهم السلاح وامتزجوا بهم . وقُتل يومئذٍ من العرب زهاء خمسة آلاف . وقبض الفرنج على العبّاس وباعوه من المصريّين فاعتقلوه وفتكوا به .

وفي تلك السنة سار الخليفة المقتفي الى تكريت وحاصرها حصارًا شديدًا وقوّض ابنيتها وصوّب القتال نحو قلعتها . فارسل محمّد شاه ابن السلطان مسعود الى امراء الموصل يقول : ان آبائي (٣٢٣) قد ولّوكم هذه البلاد لتنجدوهم . والآن فلم يبقَ لنا في ارض سنعار كلّها سوى قلعة تكريت والخليفة يحاول انتزاعها منّا . فترغب ان تحضروا دون تربة وتدفعوه عنها . عند ذلك احتشد المواصلة وزحفوا الى تكريت فسمع الخليفة وملكه الذعر فترك اثقاله وعُدَده وعرول عائدًا الى بغداد .

وبعد ايّام حشد اميرٌ تركيٌّ زهاء اثني عشر الفًا وارسلهم الى تكريت فانقذوا ارسلان شاه بن طغرل السلجوقيّ من السجن لانه يتحدّر من سلالة الدولة السلجوقيّة . وخرج الخليفة كذلك في جيوشه الى لقائهم . وظلّوا ثمانية عشر يومًا في طريق خراسان تجاه بعضهم ثم تبارزوا فانكسر اصحاب الخليفة وحاول الفرار فتوسّل اليه رجلان من حشمه ان يتربّص هنيهةً ومضيا به مع

حصانه الى ما قدّام على كره منه . فتشجع البغداديون وكرّوا على الاتراك وهزموهم واحتووا على انقالهم جميعها وكانت فيما قيل اربعمائة الف خروف سوى البقر والجمال .

وفي هذه السنة كانت مياه دجلة تسيل كالدماء الحمراء . ونبع دمٌ من الارض في بلد واسط وغيره .

وفي السنة ١١٦٧ لليونان (١١٥٦م) تحرّش البرنس صاحب انطاكية بتوروس صاحب قيليقية يطالبه بالحصون التي انتزعها الارمن من اليونان واليونان من الفرنج ليولّي عليها الاخوة الفرير لانهم يقاتلون في سبيل جميع المسيحيّين . فتمنّع الارمن واصطدموا مع الفرنج عند باب سقنطرون فانكسر الارمن وانهزم توروس ثم تصالح الفريقان وتولّى الاخوة الفرير تلك الحصون .

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش (٣٢٤) الى احدى قرى الارمن . فحشد اسطفان اخو توروس جيوشه ومضوا ليلًا واختفوا في البيوت . ولمّا فُتح باب القلعة صباحاً نهضوا وذخلوه واحتلوا السور الخارجيّ وجعلوا يحفرون داخلًا . وبلغهم اذ ذاك ان الامير قادم في جيش تركي فملكهم الرعب وخافوا ان يُحصَروا ما بين السورَين ويتناوب الداخلون والخارجون في مبارزتهم . بناء عليه نهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي سائر ما تعذّر عليهم نقله . واستاقوا الاهالي جميعاً وانهزموا . وقد استاق الارمن الحبشاء من الجملة المطران ديونيسيوس ابن الصليبيّ فتمكّن من النجاة راجلًا الى دير كاليسيور . ونظم ثلاث قصائد في خراب مرعش هذا لانه كان راعيها يومئذٍ . ولمّا وصل الاتراك عاملوا المسيحيّين بالحسنى وردّوا الى الارمن العائدين الى بلدهم جميع بيوتهم وكرومهم واراضيهم . غير انهم سلخوا قسيساً ارمنيًا وهو حيّ وبتروا لسانه ويديه ورجليه واحرقوه بعد ثلاثة ايام بالنيران . وما ان بلغ الارمن ذلك حتى عاملوا هم كذلك بعض الاتراك مثل تلك المعاملة الجافية .

وفي تلك السنة سُلخ حيًّا قسيس آخر ارمنيّ في ملطية . ذلك لانه أغرى فتاةً خُطبت حديثاً ومضى بها الى الكنيسة وحاول افتضاضها . فاخذت المسكينة تصرخ مستغيثةً . لكن النجس وضع يده على فمها حتى اكمل شهوته . وبعد هذا شاهدها على آخر رمق فأجهز عليها وبتر اذنيها وبعض اصابعها وقد توزّمت

وتعذّر عليه نزع الخواتم عنها فاخفاها جميعاً في قنديل . ثم لفّ جثمانها في حافٍ وجعله ضمن المذبح . وبعد ساعة جعل يحتواها وابواها يفتّشون عنها فقال لهم بعض الصبيان الذين كانوا يلعبون في الزقاق : قد رأيناها دخلت الكنيسة (٣٢٥). فسألوا ذلك القسّيس فقال : نعم دخلت الكنيسة ولمّا شاهدتني غلب عليها الحياء فسارعت في الانصراف ولم تتوقف . فصدّقوا كلامه تصديقهم كلام كاهن وجعلوا يطوفون المدينة ويبحثون في بيوت الانبياء عنها . ثم شاهدوا ذلك القسّيس النجس متحذّيا بنعال خارجاً من باب المدينة فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فصفعه بعض صفعات حتى أقرّ وأراهم جثمان الفتاة واذنيها واصابعها . واحتشد جماهير العرب والمسيحيّين رجالاً ونساء وشيّعوها ببكاء مرّ ومراثٍ مؤثرة ودفنوها . امّا القسّ النجس فقد سلخوه وقطعوه إرباً إرباً واحرقوه وهو حيّ حتى هلك .

وفي السنة ١٤٦٨ لليونان (١١٥٧ م) سار البرنس صاحب انطاكية الى قبرس وهي لليونان وسبى اهاليها جميعاً في غنمهم وبقرهم وخيلهم وامتعتهم ولمّا بلغوا الى ساحل البحر أدّى القبرصيّون ذهباً وافراً انقاذاً لنفوسهم لا غير فأغضى عنهم الفرنج واكتفوا بأموالهم ومواشيهم . واستاقوا الاساقفة ورؤساء الاديار والزعماء الى انطاكية بمثابة رهائن ريثما استوفوا ما طلبوا .

وفي السنة ١٤٦٩ لليونان (١١٥٨ م) حاول اسطفان الارمنيّ ان يفتك باخيه توروس . فشعر اخوه وقبض عليه واعتقله عشرة شهور ثم سرّحه تلبيةً لطلب الفرنج وانضمّ الى جيشهم .

وفي السنة ٥٥٢ للعرب (١١٥٧ م) حدثت في سورية زلازل عنيفة . ففي حماة هبطت قلعتها وبيوتها جميعها على الشيوخ والفتيان والنساء واهلكت ربوات من اهاليها . وسقطت كذلك قلعة شيزر برمّتها ولم ينجُ من اهلها سوى امرأة واحدة وحاجب واحد . اما الحصنيّون فسارعوا الى ظاهر المدينة ونجوا وتلفت دورهم وقلعتهم . وانهزم الحلبيّون من المدينة وظلوا اياماً خارجاً عنها وافلتوا من الموت . وقد تقوّضت بيوتهم وهلك منهم خمسمائة نفس فقط . ولم ينجُ احد من اهالي كفرطاب وافامية (٣٢٦) وخربت بيوت كثيرة في رحبوت . واجتيح من مدن الفرنج حصن الاكراد وعرقة ولم يبقَ في اللاذقية سوى

كنيستها الكبرى ونجا جميع اهاليها وانفتحت ارضها وظهرت فيها مياهٌ مملوءة وحلًا انغمس في وسطه صنم مسبوك . وتضعضعت اغلب بيوت انطاكية وطرابلس .

وفي تلك السنة مات جوسلين مسجوناً في حلب بعدما ادّى توبةً نصوحاً كما ذكر اغناطيوس اسقفها الذي زوّده بالاسرار المقدّسة[1] .

وفي هـذه السنة وصل السلطان محمد ابن السلطان محمود في جيش جرّار الى بغداد وحاصرها اربعة اشهر وضايقها جدًا . على ان بعض اقطابه أغروا الخليفة بالعطاء وثبّطوه عن الحرب . وبلغهم الخبر اذ ذاك بان ملكشاه اخا السلطان قد احتلّ همذان وسباها واختطف نساء الزعماء . فارتحت عزائم السلطان وغادر بغداد فتتبّعه جيوش الخليفة وفتكوا بكثيرين من الاتراك دون شفقة . ذلك لِما احدثوه من الخراب غربي العاصمة حيث كانوا مخيّمين . هـذا فضلًا عن ارتكابهم الفحشاء من النساء ضمن المساجد وتجاه رجالهنّ دع ما احدثوه من القتل واحراق الدور .

وفي هذه السنة مات السلطان سنجر بن ملكشاه بن الب ارسلان بن داود على اثر افلاته من يد الغزّ الذين سبقوا فاعتقلوه .

وفي السنة ١٤٧٠ لليونان (١١٥٩ م) زحف منوئيل ملك اليونان الى قيليقية واسترجع طرسوس وعين زربة وغيرهما واقام هناك الشتاء كله وتوروس الارمنيّ منهزم . وتوجّه ملك اورشليم وامير انطاكية وبطريرك الفرنج الى زيارة منوئيل واتفقوا معه وصالحوه مع توروس واحضروه اليه فأقامه قائدًا لجميع الجيوش اليونانيّة في ساحل البحر . وأجمع اليونان والفرنج والارمن على الزحف الى حلب (٣٢٧) ودمشق وسائر المدن السوريّة . وبلغهم الخبر يومئذٍ بان اليونان يحاولون اقامة ملكٍ آخر فسارع الملك منوئيل في العودة الى عاصمته ولم يكمل ما عوّل عليه بالاتفاق مع الفرنج والارمن .

وفي نيسان تلك السنة حدث طوفانٌ في بغداد ضعضع بعض جدران بلاط الخليفة وانهزم الاهالي الى غربي المدينة حاملين المرضى والعجائز والصغار على الاكتاف خوفاً من الغائلة . وبلغت اجرة الزورق في احد المعابر اربعة دنانير ذهباً .

---

١) راجع صفحة ٢١٦

وفي السنة ١٤٧١ لليونان (١١٦٠م) اصطلح ابن جوسلين الأسير على الخروج من حارم والعيث في اطراف حلب . فاقام له نور الدين كميناً قبض عليه وألقاه في الجبّ الذي كان فيه والده . وفي اذار تلك السنة وهي السنة ٥٥٥ للعرب لليلتين من ربيع الأوّل مات الخليفة المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد .

بعد المقتفي المستنجد ابنه

تولّى اثنتي عشرة سنة . وما كاد يتوفى والده حتى سارع ليشاهده في غرفته . غير ان امرأة ابيه والدة اخيه الصغير وهي تركيّة هيّأت جواريها في السكاكين وتأهبن ليفتكن بالمستنجد حالما يدخل الغرفة فتصبح الخلافة لابنها . على ان احدى تلك الجواري خرجت مسرعة واخبرت المستنجد فحشد الجند وقبض على اخيه واعتقله وسجنه . ثم قصد اولئك النساء وسجنهنّ واحدةً فواحدةً وأجهز على بعضهن وتأيّد في الخلافة .

وفي السنة ١٤٧٢ لليونان (١١٦١م) توجّه سير آموري شقيق ملك اورشليم الى مصر واحتوى على اموال جزيلة وعاد . وما عتم ان مات الفائز خليفة مصر وارتضى المصريّون ان يؤدّوا للفرنج كلّ سنة مائة وستين الف دينار ذهباً .

وزحف جورجي ملك الكرج الى آني وانتزعها من (٣٢٨) الاتراك وغنم غنائم جمّة واعتقل الكثيرين من العرب وعاد الى بلده .

وامتاز جمال الدين الامير الموصلي بعطفه وحسناته الوافرة فارسل المفريان اغناطيوس سفيرًا الى جورجي المذكور ليفتدي الأسرى العرب . فرحّب به جورجي اجمل ترحيب وأطلق الكثيرين من الأسرى مجاناً واعاده في هدايا الى الامير وبعث معه سفراء كرجيّين استقبلهم الامير أحسن استقبال . ووصل المفريان والسفراء الى الموصل والصلبان تتلألأ في رؤوس الارماح تما انعش المسيحيّين وابهج العرب خصوصاً بتسريح أسراهم

وظهر آنئذٍ سارق فرنجيّ في بغراس وحاول الفرنج ان يقبضوا عليه لكنّه انهزم يريد نور الدين وانقلب من عنده في بعض الاتراك ليتلصّصوا بضواحي انطاكية فوضع له الفرنج كميناً قبض عليه واحرقه بالنار .

وفي تشرين الاوّل ١٤٧٣ لليونان (١١٦٢م) مات ذو القرنين صاحب ملطية وخلفه ابنه الصغير . اما قلج ارسلان سلطان قونية فلمّا عرف ان يعقوب ارسلان وسائر الأمراء يحاولون خلعه ليقيموا اخاه بدلًا منه سار الى قسطنطينية وتحفّى له اليونان . وظلّ هناك ثمانين يوماً يرسل اليه الملك كلّ يوم الطعام مرّتين في اطباق ذهبيّة وفضيّة جديدة ويشير بابقائها لديه . وظلّ كذلك طول اقامة السلطان في العاصمة . وفي اليوم الاخير تناول الملك والسلطان طعام الغداء معاً على مائدة واحدة . ثم أسنى اليه الملك آنية وزخارف وتحفاً ثمينة وأهدى الى الاتراك وعددهم الف تركيّ عدّة هدايا . وعاد السلطان الى عاصمته فأدّى له يعقوب ارسلان الطاعة وتهادنا .

وأولم في تلك الغضون اندرونيقس اليونانيّ حاكم طرسوس وليسةً لاسطفان اخي توروس صاحب قيليقية (٣٢٩) . وشوهد اسطفان آنئذٍ مقتولًا ومطروحاً على باب المدينة . فاحتدم توروس غضباً وفتك باكثر من عشرة آلاف يونانيّ . ثم اقبل ملك اورشليم واصلح ذات البين بين الارمن واليونان .

وفي السنة ١٤٧٤ لليونان (١١٦٣م) حاصر قرا ارسلان صاحب حصن زياد مدينة آمد حصارًا شديدًا . وحصل اذ ذاك خلاف بين عسكره اضطرّه ان يترك المدينة وينقلب راجعاً . وزحف يعقوب ارسلان الى بلد قرا ارسلان وانتزع منه قلعة شوموشكي وأجلى زهاء مائة الف نسمة وترك القرى قفرا . وعاد . وكان في جملة من أجلى اغناطيوس مطران تلّ ارسانيوس فأعاده من قاح الى ملطية واعاد كذلك مطران حصن زياد بعد يومين .

وكانت امرأة البرنس المسجون في حلب تخاصم يومئذٍ ابنها وتزاحمه في الولاية فعارضها الزعماء . فوجّهت الى ملك اليونان صهرها ليأتي اليها ويتولّى انطاكية . وما ان شعر البطريرك والاقطاب حتى استدعوا توروس من قيليقية فأقبل الى انطاكية ونفى الملكة وأيّد ابنها في الامارة .

وفي السنة ٥٥٨ للعرب (١٢٦٣م) حشد نور الدين جيشاً من الاتراك كثيفة وسار الى حصن الاكراد يريد غزو ضواحي طرابلس . واذ كانوا ذات يوم مجتمعين مطمئنين في خيامهم انقضّ عليهم الفرنج في صلبانهم فهلعوا وانذعروا . اما نورالدين فلمّا شاهد آلوية الفرنج قفز من خيمته في مطفه دون قميص وركب

حصانه وهو ممتطٍ كالعادة فبادر احد الاكراد وقطع الرُبُط فانهزم نور الدين وافلت . ولحق الفرنج ذلك الكرديّ وأجهزوا عليه وعلى الكثيرين من الاتراك واوثقوا البقيّة واستاقوهم الى طرابلس .

وفي السنة ١١٧٥ لليونان (١١٦٤م) باغت الموت يعقوب ارسلان عند نهر سانجر على شاطئ (٣٣٠) نهر أليس . وخلفه اسميل حفيد اخيه واقترن بامرأته وهي بنت السلطان .

واحتشد يومئذٍ خمسة زعماء هم : البرنس صاحب انطاكية وقنص طرابلس وتوروس صاحب قيليقية ودوقاس اليوناني صاحب طرسوس والمستر رئيس الفرير وزحفوا في ثلاثة عشر الف فارس وراجل ليناوشوا نور الدين وهو يحاصر حارم . فانكسر الفرنج اقبح انكسار وقبض الاتراك على القنص وعلى دوقاس والبرنس ومضوا بهم الى حلب . وفتكوا بالاخوة الفرير قاطبةً . وافلت توروس الى انطاكية . وقد أقام بطريرك الفرنج مناحة عامّة وحطّم النواقيس وأبطل الصلوات . اما نور الدين فقد احتلّ حارم ودير سمعان واستاق الرهبان والاهالي عبيدًا .

وفي السنة ٥٥٩ للعرب (١١٦٣م) وجّه نور الدين الى مصر الامير أسد الدين شيركوه اخا نجم الدين ايوب ابي صلاح الدين . وكان الاخوان شيركوه وايوب وَلَدَا شادي كورديّين اصلهما من دوين مدينة بارمينية . تولّيا خدمة مجاهد الدين بهروز الحاجب امير تكريت محبّ النصارى . واتفق ان شيركوه قتل رجلًا نصرانيًا تكريتيًا عزيزًا على قلب الامير وانهزم مع اخيه الى الموصل فرحّب بهما زنكي وعظّم امرهما لديه . وبعدما احتلّ زنكي بعلبك استعمل على قلعتها نجم الدين ايوب وظلّت بيده حتى موت زنكي فسلّمها الى صاحب دمشق . وتولّى اسد الدين شيركوه اخوه خدمة نور الدين ثم استعمله على حمص ورحبوت . وقد ساعد ايوب نور الدين في احتلاله دمشق وكان الاخوان معزّزَين لديه .

فلما دعت الحاجة الى ارسال الجيوش الى مصر بسبب ضعف المصريين واقبل وزيرها شاور يستنجد بنورالدين سيّر معه شيركوه (٣٣١) . وما علم ان احسّ شاور بان شيركوه يحاول احتلال مصر فبعث يهادن الفرنج ويغضي عنه

وأبى ان يدفع له ما وعده به من الذهب والاماكن المحاصنة . عند ذلك ارسل شيركوه جيوشه الى مدينة بلبيس واحتلوها . وارسل شاور الى ملك اورشليم فزحف في جيش كثيف وانهزم شيركوه وتحصن في بلبيس . ثم اتفق المصريون والفرنج وحاصروه هناك ثلاثة اشهر . على ان ملك اورشليم لما بلغه ان الفرنج انكسروا في حارم واعتقلوا رخص لشيركوه ان يغادر بلبيس ويعود الى بلده ويدع مصر للمصريين فوافق على ذلك دون تردد وانقلب الى دمشق .

وفي السنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥م) زحف قلج ارسلان سلطان قونية الى جادوج وابلستين وطورنده واحتلها وجعل يعادي بني دنشمند .

واحتل نور الدين بانياس وعززها . وغزا توروس الارمني مرعش واعتقل اربعمائة تركي وارسل الى نور الدين يقول : اني ازمع ان أحرقهم او ترد الي الزعماء المسيحيين الذين عندك . فاضطر نور الدين ان يطلق كل من كانوا لديه بمائة الف دينار وفي جملتهم بوهيمند الجرنس الفتى . وسار هذا الى قسطنطينية لزيارة حميه ملك اليونان . فجاد عليه الملك باموال وافرة وعاد الى انطاكية مستصحباً اثناسيوس بطريرك اليونان . فارتاب بطريرك الفرنج وارتحل الى قلعة القصير وارسل فابرم الحرم على الانطاكيين الفرنج .

وفي شباط تلك السنة توفي امين الدولة ابن التلميذ الطبيب المسيحي في بغداد بالغاً التسعين . وكان متضلعاً في مختلف العلوم ووحيد عصره في الطب وخبيراً راسخاً في الفصاحة ونحو العرب وشعرهم (٣٣٢) لا ينقصهم علماً وفضلاً . وتقلب ايام حياته في خفض من العيش والقربى من الملوك . قيل ان ابنه سأله قبل وفاته ما الذي يؤلمك ؟ فقال : كآبة التسعين من عمري . وسأله كذلك : ما تشتهي ؟ فقال : أن أشتهي .

وفي السنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥م) بلغنا خبر عجيب عن اهالي قرية آلبناس ذلك انه لما اجتاحها الوباء بسبب غزارة المياه سار اليهم رجل تركي وقال لهم : ابحثوا عمن مات الاول في هذا الوباء . ولما فتحوا قبره وقد مر على موته اربعة اشهر شاهدوا جسده باقياً وعيناه مفتوحتين وفمه مفتوحاً نحو شبر واربع اصابع وكفن رأسه وصدره مأكولاً ولحيته مقصوصة ويده اليسرى مبتورة وهي بجانبه . ثم ان ذلك التركي سد فمه وستره بستار ضخم ومنذ إذ لم يمت احد في تلك القرية .

وفي السنة ١٤٧٧ لليونان (١١٦٦م) وقعت حرب بين اليونان والباطار وأصيب الملك منوئيل وسقط عن حصانه . وحاول رجل بلغاري ان يفتك به الّا ان الملك عرّفه انه هو منوئيل وخلف له انه ان مضى به الى قسطنطينية جاد عليه بعوارف جمّة . فأبى البلغاري طلبه وانجز الملك وعده له وزاده اضعافاً . قيل ان هذا الملك خان زوجته الملكة وسقاها سمّاً لانها لم تلد له ولداً ثم اقترن بامرأة ثانية خلافاً لشريعة الملوك .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان (١١٦٧م) وهي السنة ٥٦٢ للعرب وجّه نور الدين تكرارًا الى مصر الامير اسد الدين شيركوه وصلاح الدين ابن اخيه . وكان شيركوه يتوق الى ذلك جدًّا فباذر في الرحيل وعبر النيل من الناحية الغربيّة وسار مطمئناً حتى الصعيد . وعندئذٍ أرسل الوزير شاور (٣٣٣) يستنجد الفرنج فساروا في جنوش كثيفة واتحدوا مع الجيش المصريّ وزحفوا نحو شيركوه . فاشار الزعماء عليه ان يعود راجعاً الى سوريّة من الناحية الشرقيّة مصرّحين له بعجزهم عن مقاتلة الفرنج والمصريّين جمعاً ومؤكدين له ان الانكسار اقرب اليهم من الانتصار وان جميع الاهالي ضبّاطاً وفلاحين هم اعداء للاتراك .

وبرز اذ ذاك بنفوش عبد نور الدين وهو شابّ شجاع مصارع وقال لهم : ثقوا ايها الزعماء بانكم اذا تخلّيتم عن محاربة الأعداء وعدتم غالبين او مغلوبين الى نور الدين فلا بدّ من ان يقطع عنكم المعاش ويطالبكم بما سبق فاعطاكم . فالذي يهاب الخطر لا يصلح ان يكون جنديًّا بل فلاحاً او مهلّلاً يلزم بيته كالنساء . فقال شيركوه : هذا هو رأيي كذلك ووافقه صلاح الدين ايضاً . وحينئذٍ اجمعوا على القتال . واحتشد المصريّون والفرنج دون توقّف والتحم القتال بين الفريقين على كرهٍ منهم .

ثم اشار شيركوه الى صلاح الدين ابن اخيه ان ظلّ انت في قلب الجيش مع الاثقال كي يغلب على ظنّ الفرنج والمصريّين اني انا هو . ثم لا تلبثوا تجاههم بل أسرعوا فأعطوهم ظهركم ولا تخافوا اذا تتبعوكم لاني انا سأزحف وراءهم . ولمّا التحم القتال انتقى شيركوه ابطال جنوده ممّن اعتمد على بطشهم وجهادهم . وما ان زحف الفرنج والمصريّون حتى انهزم اصحاب صلاح الدين وتتبعهم الفرنج والمصريّون . وعند ذاك شدّ شيركوه وراءهم وعاد الاوّلون

كذلك إليهم حتى أمنى الفرنج والمصريون في القلب فطحطحهم الاتراك وكسروهم (٣٣٤) وهزموا من امكنه الانهزام : قيل ان شيركوه لم يكن معه سوى الفي جنديّ لا غير مع ان الفرنج والمصريين كانوا اكثر من عشرة آلاف .

وبعد هذا سار شيركوه الى الاسكندرية واخذها دون حرب . واحتشد المصريون والفرنج في القاهرة وارسلوا اليه في الصلح على ان يؤدّوا له خمسين الف دينار ويعود الى بلاده وان تبقى الاسكندرية للمصريين وان يؤدي المصريون للفرنج كلّ سنة مائة الف دينار ويعودوا الى بلادهم ويقيموا شحنة وفرساناً يحرسون ابواب الاسكندرية كي لا يطمع بها اصحاب نور الدين فيما بعد . هكذا ترك شيركوه مصر وانقلب الى دمشق .

وفي هذه السنة زحف قرا ارسلان صاحب حصن زياد الى آمد واحتلّ برجين من ابراجها بدهاء خرّاسانيا : غير ان سائر الحرّاس وثبوا الى الاعداء وفتكوا بهم . فانقلب قرا ارسلان خازياً كئيباً الى بلده وادركته المنون في ٧ تموز وخلفه ابنه .

وفي كانون الثاني ١٤٧٩ لليونان (١١٦٨م) مات توروس صاحب قيليقية وكان قد انقطع الى الرهبنة في اواخر حياته وأوصى ان يخلفه ابنه الصغير ويتولى الاشراف عليه توماس ابن خالته وحزم اخاه مليح وراثته . فامتعض وقصد نور الدين وعاد بجيش تركيّ الى قيليقية وأجلى ستة عشر الفاً من فتيان وفتيات ورجال ونساء وقسوس ورهبان زاحفة واستاق الجميع الى حلب وباعهم ودفع اثمانهم الى الاتراك . وبعد هذا ارسل الارمن فاستدعوه وولّوه نصف البلاد فأقسم لهم انه يترك النصف الثاني للفتى . غير انه اخلف في أقسامه واحتلّ البلاد كلّها وفقأ عيون الكثيرين من الاساقفة والاعيان وبتر ايديهم وارجلهم وسلخ البعض احياء والقاهم الى الوحوش .

وفي السنة ٥٦٣ للعرب (١١٦٧م) شاخ (٣٣٥) زين الدين الامير التركيّ قيّم قطب الدين صاحب الموصل وطرش وعمي . وتخلّى لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهكارية وتكريت وشهرزور واكتفى باربيل وحدها اذ كانت في حوزته منذ عهد زنكي وانتقل اليها وفيها قضى اجله . وخلفه ابنه مظفّر الدين وأصبح قيّم مجاهد الدين . وكان زين الدين ممتازاً بعدله

وحسناته وسخائه . متوخياً السذاجة في تصرّفه . جاءه يوماً فارس بيده ذئب حصان وذكر له ان حصانه قد هلك فأمر ان يُعطى حصاناً آخر . ثم ذهب ودفع ذلك الذئب الى فارس ثانٍ أتى به كذلك الى الامير فأمر له بحصانين . وهكذا تناوب اثنا عشر فارساً في الذهاب بالذئب والحصول على حصان جديد . على ان الامير قال لآخر واحدٍ منهم : لقد استغربتُ انكم لم تخجلوا مني خجلي منكم . فقد عرفتُ ان الذئب عينه أُحضر اليّ اثنتي عشرة مرّة ومع ذلك كله لم اخجلكم وارفض طلبكم بل اجزلت لكم العطاء . كن يؤدّي فرضاً لازباً ولم اثقل على احد منكم . وجاءه يوماً شاعر وانشده قصيدةً فقال له : اني لم افهم ما قلتَ ولكني عرفتُ انك تطلب شيئاً . ثم امر له بخمسمائة دينار وحصانٍ وكسوةٍ قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

وفي السنة ١١٨٠ لليونان (١١٦٩م) انتزع قلج ارسلان سلطان قونية من بني دنشمند مدينتي قيسارية قبدوقية وسيناندر . وفي السنة عينها وهي السنة ٥٦٤ للعرب انتزع نور الدين قلعة جعبر من شهاب الدين الامير المدّيّ المتصل ببني عقيل واعطاه بدلاً منها سروج والماحلة وباب بزاعة وعشرين الف دينار . وأقام شهاب الدين زماناً (٣٣٦) في سروج وسأله بعض اصدقائه : ايّ البلدين أطيب لك ؟ فقال ان ههنا الوارد اكثر ولكننا تركنا العزّ في القلعة . وفي السنة عينها انتزع قلج ارسلان من اليونان انقرة وقنقار .

وفي تلك الغضون ارسل الفرنج المقيمون في مصر والاسكندريّة لاجل جباية الضرائب وحراسة الابواب يقولون لآموري ملك اورشليم ان البلد خالٍ من الجيوش وان في استطاعتكم احتلاله . وانتوى الزعماء ان يلبّوا الطلب . غير ان الملك الحكيم ثبّطهم وقال : ان اموال مصر تأتينا عفواً صفواً واذا زحفنا اليها فلا بدّ من ان العرب بسبب حقدهم علينا يستجيرون بنور الدين ويكتبون اليه في الحضور فيثب الينا المصريون والعرب جميعاً ويتغلّبون علينا . غير ان الزعماء لم يذعنوا لمشورته بل قالوا اننا سنحتلّ مصر قبل ان يُمدّ نور الدين المدّة للقدوم . هكذا تغلّبوا على الملك واحتشدوا وساروا في الرحيل واحتلّوا بلبيس وانتهبوها وأجلوا اهاليها ثم ساروا الى القاهرة وحاصروها فخاف المصريون ان يحدث لهم ما حدث لاهالي بلبيس وشجّع بعضهم بعضاً واصطفّوا

فوق الاسوار وجاهدوا أقوى جهاد حتى ان العاضد خليفة مصر قص ضفائر نسائه وبناته وبعث بها الى نورالدين يقول : ان نسائي يتذللن باكيات بدموع مدرارة ويلتمسن ان تسارع الى اعانتهن وتنقذهن من ايدي الفرنج . غير ان نور الدين ظل شهرين يحشد الجنود وبسبب تمهله هذا واشتداد القتال كتب شاور وزير مصر الى آموري وزعماء الفرنج يقول : انكم عالمون بمودتي لكم . ولو عرفت ان العرب يطيعوني لتخليت لكم عن مصر دون تريث . لكني (٣٣٧) اعتقد انهم اذا سمعوا شيئاً من هذا القبيل اهلكوني لا محالة . فأرى اذن من الموافق ان تقبضوا من الذهب ما شئتم وتعودوا الى بلدكم وتقيموا لكم وكلاء يجبون لكم الجزية كالسابق . ولا يخفى عليكم انه اذا جاء نور الدين واحتل المدينة فحينئذٍ تخسرونها وتخسرون الجزية معاً .

اقتنع الفرنج وعقدوا الصلح وفرضوا على المصريين الف الف دينار . ودفع لهم شاور مائة الف دينار حالاً وقال : اذا تركتمونا وانصرفتم فانا اجمع بقية الذهب وابعث بها اليكم . وعلى هذا الاتفاق غادر الفرنج مصر وعادوا الى بلدهم .

ولما سمع ذلك نور الدين ظل يرسل الجيوش الى مصر لانه كان يضمر لهم السوء لا الخير . ولذا سيّر شيركوه في جيوش ضخمة وسيّر معه صلاح الدين ابن اخيه . ولما وصل شيركوه الى مصر زار الخليفة العاضد واحتفى لديه وجعل يملأه بكلمات لا تحلو بطائل ولا سيما لان الوزير شاور المتولي توزيع الارزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئاً من المال . وكان يحاول ان يولم وليمة لاسد الدين ويقبض عليه وعلى ابن اخيه لكن ابنه ثبطه عن انجاز اربه . اما صلاح الدين فكان يريد ان يفتك بشاور ولكن شيركوه نهاه عن ذلك . وذهب ذات يوم شاور ليزور شيركوه كالعادة ولم يصادفه اذ كان قد توجه ليتبرك بقبر احد مشايخ دينهم . وبعد هذا ركب شاور وركب معه صلاح الدين وفيما هما يتحدثان القاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يرَ ان يفتك به دون امر عمه . على ان عمه قال له : اننا لا نستطيع ان نعمل شيئاً دون امر الخليفة . لكنهما لما اخبرا الخليفة وافق على مضض نوبا لانه لم يكن يطيعه بشيء من الأشياء . هكذا قُتل شاور ونُهب بيته وتولى (٣٣٨)

شيركوه مكانه وسُمّي ملكاً وقائداً اسوةً بسائر وزراء مصر. وعاش شيركوه شهرين وزيراً ومات بداء الخناق وخلفه ابن اخيه صلاح الدين فاستمال اليه بسخائه جميع الجنود واحتلّ مصر .

ولم يخلّف شيركوه سوى ابن واحد يقال له ناصرالدين أُنيطت به وبابنائه مدينة حمص . امّا نجم الدين ايوب فكان له ستّة بنين : اوّلهم شمس الدولة توران شاه الذي تولّى الاسكندريّة . ثانيهم شاهنشاه والد عزّ الدين فروخ شاه وتقيّ الدين عمر الذي تولّى حماة هو وبنوه. ثالثهم سيف الاسلام طغتكين الذي تولّى اليمن . رابعهم صلاح الدين يوسف الذي تولّى مصر وفلسطين وسوريّة وما بين النهرين . خامسهم الملك العادل ابو بكر الذي خلف صلاح الدين . سادسهم تاج الملوك بوري وقد مات لمّا كان اخوه صلاح الدين يحاصر حلب .

وفي السنة ١١٨١. لليونان (١١٧٠م) تفاقم بغض الملطيّين كبارًا وصغارًا لمحتدِ صاحبهم بسبب التصاقه بامرأة زانية ساحرة. فاخذها وغادر المدينة وجعل يطوف من بيت الى بيت . فولّى الزعماء بدلاً منه اخاه القاسم اخاه الصغير .

وجمع ملك اورشليم انّ مليح الارمنيّ صاحب قيليقية يتعدّى على المسيحيّين فزحف اليه تدعوه الاخوة والحميّة وجبسه في احد الحصون حتى تجايى وادّى التوبة مستغفرًا واقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الاتراك . فعفا عنه وعاد.

وفي السنة ٥٦٥ للعرب (١١٦٩م) مات قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل وأوصى ان يخلفه ابنه عماد الدين زنكي . وكان لقطب الدين نائب وقيّم يقال له فخر الدين عبد المسيح (٣٣٩) اصله من انطاكية ووقع اسيرًا . وكان بينه عماد الدين فاتّفق مع قطب الدين وغيّرا الوصيّة واقاما سيف الدين غازي الابن الصغير خلفاً لابيه وعاهده الزعماء كذلك . وعند ذلك غادر عماد الدين الموصل يريد عمّه نور الدين في سوريّة . وجعل يبكي ويتظلّم من عبد المسيح لانه حرمه الوراثة والمملكة معاً .

ويوم الاثنين ٢٩ حزيران و١٢ شوال حدثت زلزلة عنيفة جدًا حتى اهتزت الارض اهتزاز سفينة في البحر ممّا لم يُسمع له مثيل في العصور الغابرة . قال البطريرك ميخائيل المغبوط : كنّا واقفين في هيكل دير مار حنانيا (الزعفران)

نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسمعنا بغتة صوت رعد قوي وسقطنا على وجوهنا امام المائدة المقدسة وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك . وبعد مدة طويلة افقنا كمن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه من ينهض من رقاد . وتدحرجت الدموع من عيوننا وأطلقنا الألسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى . وسقطت في تلك الزلزلة اسوار حلب وبعلبك وحماة وحمص وشيزر وبغراس وجميع حصونها ودورها واتلفت اهاليها . واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومذبح بيعة القسيان وهي للفرنج وقد أشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعطف على ذلنا نحن الذين لم يبقَ لنا ملك ولا حاكم منا . على ان حلب كلها سقطت سوى كنيستنا وقس عليها ثلاث كنائسنا في انطاكية وهي كنيسة والدة الله وكنيسة مار جرجس وكنيسة مار برصوما . ثم كنيستنا الصغيرة في جبلة وكنيستنا في اللاذقية . ذلك تمجيداً لله عز وجل وتشجيعاً للخصاصة المتبقية من شعبنا القويم المعتقد . وقد استغرقت مناوبة الزلزلة خمسة وعشرين يوماً .

وفي السنة ١٤٨٢ لليونان (١١٧١م) زُفّت الى ابي القاسم صاحب ملطية ابنة قرا ارسلان صاحب حصن زياد . وفيما كان اهالي العروسين يقضون افراح العرس ويلعبون في ميدان الجيل تهوّر العريس عن ظهر حصانه وهو يطارد بشدة . فانقلبت افراحهم حزناً وحداداً . وولّى الملطيّون بدلاً منه اخاه افريدون الصغير وزفّوا اليه العروس المذكورة على رغم منها .

وجيّش الجيوش يومئذٍ قلج ارسلان وزحف من قونية الى ملطية وأجلى اهالي ضواحيها وانقلب الى قيساريّة فثار عليه نورالدين وصاحب ماردين وحصن زياد وارمن قيليقيةوابن دنشمند صاحب سبسطية ووصلوا الى باب قيسارية فلم يخرج قلج ارسلان ليبارزهم بل طلب الصلح وردّ الذين أجلاهم . ثم طلبوه بابناء اخوته الاربعة المعتقلين عنده لكنه تجابث فذبح احدهم وشواه ووضعه في طبق وارسله الى أبيه وأقسم لهم بانهم اذا طلبوا الثلاثة الباقين فهو مستعد ان يذبحهم ويشويهم كأخيهم . فتركوه وعادوا .

وفي السنة ٥٦٦ للعرب (١١٧١ م) اغتصب قلج ارسلان جميع بلاد بني دنشمند . وفي السنة عينها نُعي الى نور الدين اخوه قطب الدين وخلفه ابنه

سيف الدين . وظلّ عبد المسيح يتصرّف كما شاء في شؤون الموصل ويشدّد الضغط على الاهالي . فتحسّس نور الدين وهو يقول: ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لا عبد المسيح . وغادر حلب الى الرقة ونازلها واحتلها واحتلّ الخابور كلّه ونصيبين ايضاً . وزاره محمّد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا ووصل الى جبل سنجار واحتلّه واستعمل عليه عماد الدين ابن اخيه . ثم توجّه الى مدينة بَلَد وعبر دجلة واناخ شرقي الموصل جهة نينوى . ومن الغريب انه يوم وصوله الى الموصل سقط احد ابراجها الضخمة . وعلى ما ظهر ان الزلزلة (٣٤١) العنيفة التي حدثت في السنة الماضية صدعته فتخلخل وسقط في اليوم المذكور مصادفةً .

انما عبد المسيح فلمّا رأى العرب قاطبة ميّالين الى نور الدين خاف ان يفتكوا به فارسل يطلب الأمان بشرط ان لا ينزع الموصل من سيف الدين. فاجاب نور الدين اني لستُ اريد انتزاع المدينة من ابنائي لكني اروم انقاذ اهاليها من ظلمك يا عبد المسيح وأنقلك معي من الموصل الى سوريّة لا غير . وهكذا تمّ الصلح. ودخل نور الدين الموصل واقام في قلعتها وترك سيف الدين متولّياً امورها كما كان من قبل . واقام دِيزاداراً يحافظ القلعة اسمه سعد الدين كومشتكين . ووزّع تركة اخيه على جميع أبنائه وعفا الاهالي من ضرائب كثيرة وابتنى مسجداً فخماً سمّي المسجد النوريّ باسمه . واضاف الى الموصل جزيرة قردو وظلّ ١٧ يوماً في الموصل وعاد الى سوريّة مستصحباً فخر الدين عبد المسيح وسمّاه عبد الله واعطاه أرزاقاً وافرةً . وكان يتظاهر بالاسلام ويضمر النصرانيّة ويعامل النصارى خير معاملة ويبغض العرب وعلماءهم بغضاً تامّاً. وقد شبّهه البطريرك ميخائيل بردخاي .

وفي هذه السنة أصيب الخليفة المستنجد بداء المفاصل حتى أيس الزعماء ولا سيما الاستادار من بقائه حيّاً. وفتحوا ابواب السجن واطلقوا اخوتهم المسجونين واوسل الوزير فاخبر الخليفة فسخط وأمر الطبيب النصرانيّ ابن صفيّة وهو لديه ان يكتب الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفلق هامهم . ولم يكن احد غيره من الاطبّاء يعود الخليفة في اثناء مرضه . وبعد ما كتب الرسالة (٣٤٢) ووضع الخليفة ختمه استدعى حاجباً صغيراً وقال له: خذ هذه الرسالة وانطلق

كمن يلعب وسر الدوينا واقصد الوزير وادفعها اليه . فامتثل الحاجب الأمر وخرج ومكث الطبيب هنيهة وخرج كمن يخرج ليتغوط وبادر الى الاستادار وأطامه على الحقيقة . فأسرع وبعث من قبض على ذلك الحاجب ومضى به الى الاستادار وَفَلاهُ وانتزع منه الرسالة وقتله والقاه في الجبّ . ثم نهض مسرعاً مع اصحابه ودخلوا دار البلاط الجوّانيّة فصرخت الجواري في وجههم قائلات : كيف هجمتم يا كلاب علينا هجومكم على سفيهات عساريات ؟ لكنهم لم يكترثوا لهنّ بل دخلوا غرفة الخليفة وهو مضطجع وقالوا له : ان الطبيب أمر ان ننقلك الى الحمام . فاستشاط غضباً وقال لهم : لستُ بحاجةٍ الى حمام . لكنّهم لم يكترثوا لقوله بل عرّوه قسراً ومضوا به الى بيت داخليّ فضايقه الحرّ جداً وسقط وجعل يصرخ متأوّهاً وكانوا يقرعون الباب قرعاً عنيفاً لئلا تسمع الجواري والعبيد صوته . فيقولوا انهم هم الذين قتلوه اذ تعذّر على الزعماء طردهم . وما عتم ان دخل احد الزعماء . ووطئ بطن الخليفة برجله وبعجه وما كادت تزهق روحه حتى نقلوه على آخر ومتّ ليشاهده العبيد والجواري ويتحقق لديهم انه لم يُقتَل بعجاً . وعند ذلك طلب الخليفة ماء فأبوا ان يقدّموه له مدّعين ان الماء يؤذيه . غير ان الطبيب قال لهم أعطوه معتقدًا ان الماء متى وصل الى شفتيه مات فوراً . ولكنّ الخليفة لم يتمكّن من امتصاص الماء . لان حلقومه كان قد يبس واستدّ فمات في تلك الساعة . وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان كلفاً بجاريةٍ اسمها بُنفَشة (٣٤٣) فغارت منها امرأة الخليفة وحضّت ابنه ليضاجعها ولمّا طلبها الخليفة كالعادة قالت له امرأته : لا محلّ لك بعد هذا لان ابنك ضاجعها . فانزعج الخليفة واضطرب وخولط في عقله ومرض . وسخط على ابنه وأمر ان يُقتَل . لكن الزعماء فعلوا خلاف امره فقتلوه وبايعوا ابنه بالخلافة .